

## الفضاء الصحراوي وجمالية تجريبه - قراءة في المنجز الروائي الجزائري المعاصر-

Saharan space and its aesthetics - a reading in the  
contemporary Algerian fictional achievement -

اعداد

الصوفي نوال

باحثة دكتوراه بجامعة بشار/ الجزائر

أ.د/ عبد القادر سلامي

جامعة تلمسان/ الجزائر

Doi: 10.12816/mdad.2021.152301

القبول : ٢٠٢١/١/٨

الاستلام : ٢٠٢٠/١٢/١٥

### المستخلص :

إن الارتقاء بالفن الروائي مطمح يتمنى إدراكه أي مبدع تأسره اللذة الجمالية، وهذا ما يبرر التوجه الدؤوب للكاتب الجزائري صوب التجريب لا ابتكار عوالم متخيلة جديدة عن طريق الفضاء الصحراوي، لترضي رغبته الجامحة في إحداث تغيير يمس عمق تجربته الإبداعية في ظل راهن زنبقي لا يحتمل الثبات، في هذا الصدد تسخر التجربة الإبداعية كل ما يتاح لها من وسائل وآليات لتحصيل الجمالية المكانية وفق رؤية مستحدثة لها فلسفتها الخاصة في توحي الفنية والجمالية. الكلمات المفتاحية: الفن الروائي، المبدع، التجريب الجمالية المكانية، رؤية مستحدثة، عوالم متخيلة، الفضاء الصحراوي.

### Abstract:

The advancement of fictional art is an aspiration that any creator who is captivated by aesthetic pleasure wishes to realize, and this justifies the relentless tendency of the Algerian writer towards experimentation to create new imagined worlds through the desert space, to satisfy his unbridled desire to make a change that touches the depth of his creative experience in the shadow of a mercurial and intolerable present. In this regard, the creative experience harnesses all available means and mechanisms to

achieve the spatial aesthetic according to a modern vision that has its own philosophy of pursuing the artistic and aesthetic.

**Key words:** fictional, creative, experimentation, spatial aesthetics, new vision, imagined worlds, desert space.

### مقدمة:

شهدت الرواية الجزائرية مجموعة من التحولات رافقتها خلال مسيرتها الإبداعية المستمرة، فقد حاولت مواكبة التطور الحاصل في الخطابات السردية الغربية والعربية بما يتلاءم مع الواقع والفكر الجزائري، وعليه تأسست خلال هذه المسيرة الحافلة للخطاب السردى الجزائري عدة اتجاهات كرست انفتاح الرواية الجزائرية على الآخر، فلاحت في الأفق تجارب روائية متعددة ومتنوعة رسمت مسارا خاصا للرواية الجزائرية نأى بها عن التقليدية، فارتسمت معالم جديدة للخطاب الروائى الجزائري تتبنى مفهوم الحداثة والتجديد في الفن الروائى.

وقد ارتبطت الرواية الجزائرية المعاصرة بمفهوم التجريب الذي منح المبدع الحرية في التعامل مع الخطاب السردى، فلم يعد الالتزام بالنواميس القديمة ضروري في العملية الإبداعية بل صار التمرد عليها واجبا لإبراز مفاتن الرواية. فتبني مفهوم التجريب صار ضرورة حتمية لابتكار شكل سردي مستحدث يواكب مستجدات الواقع الذي نعيشه. وضمن هذا الطرح تبرز الصحراء في الرواية الجزائرية بوصفها الفضاء الذي يتفرد بخصائصه الجمالية المتنوعة والمتعددة لما يثيره في نفس الإنسان من مشاعر متضاربة متناقضة وهو بخصائصه تلك يوفر للمبدع مناخا خاصا للتجريب.

### المكان (الفضاء) وأهميته التجريبية:

يظل مصطلح "المكان" عنوانا لحقل دلالي ينضوي تحته كل من: النُبْعة أو البُقْع والحَيْز<sup>٢</sup>، والخَلَاء<sup>٣</sup> والفَرَاغ<sup>٤</sup>، والمَجَال<sup>٥</sup>، والمَلَأ<sup>٦</sup>، والمَحَل<sup>٧</sup>، والمَوْضِع<sup>٨</sup>، والمَوْقِع<sup>٩</sup>، و الفَضَاء<sup>١٠</sup>.

ولئن مثل الفضاء: المكان الواسع من الأرض والخالي الفارغ، الواسع من الأرض، والساحة وما اتسع من الأرض وما استوي من الأرض واتسع<sup>١١</sup>، فإن الصحراء: الصحراء مكان فضفاض يغيب فيه البصر الحديد ويمتد أمامه الأفق واسعا رحبا حتى كأنه لا نهاية له.<sup>١٢</sup>

قال الأعشى: <sup>١٣</sup> (من المتقارب)

وبَيْدَاءٍ قَفْرٍ كَبُرْدٍ (\*)، السَّدِيرُ (\*)، مَشَارِبُهَا (\*)، دَائِرَاتُهَا (\*)، أَجْنُ (\*)  
والصحراء بذلك فضاء واسع ممتد قفر، لا ماء فيه كالأنهار والجداول، قليلة الأمطار والنباتات وجو جاف. فما من حديث عن الصحراء إلا وكان مجسدا لصلابة صخور الصوان، ولهيب الشمس فوق رؤوس الخلائق، وزفير الرياح، وعويل الوحوش

الشوارد. وهو الفضاء المفتوح على كل مارء، وعلى كل ما يتربص بالناس الدوائر، ويلحق بهم الأذى، مما يضفي على الصحراء رهبة، لذا مال بها "العربي" نحو المفازة، من حيث جعل منها ربعا ومنزلاً.

ويمثل الفضاء الصحراوي عنصرا مهما ومميزا من عناصر السرد في الرواية الجزائرية المعاصرة. فالصحراء بما حباها الخالق من خصائص جمالية تساهم في تشكيل الأبعاد الواقعية والمتخيلة للخطاب السردى ككل، فهي تمثل بؤرة إدهاشية لأنها تثير مشاعر متناقضة لدى الإنسان، فهي تثير الرهبة والخوف كما أنها تثير الطمأنينة والسكينة، فقد استأثرت الرواية العربية المتعلقة بالصحراء، " لجعلها مكاناً بؤرياً بسبب ما تتمتع به الصحراء من خصوصية عربية مشهدة تنفتح باتجاه فكرية الرحابة القصوى، بالإضافة إلى أنها مكان مفتوح يبدو بلا نهاية، ويبدو غير قابل لمطلقية الإحاطة وضبط التخوم." <sup>١٤</sup> لهذا لم يكتف المبدع الجزائري برسم الصورة الحقيقية للمكان، بل أضاف عليها بما جادت عليهم قرائهم من خيال خصب، وعبؤوه بدلالات ثرة ساهمت في إرساء جماليات الحيز الروائي ككل.

من هذا المنطلق سنحاول في هذه الدراسة ترصد صورة الصحراء في مدونة البحث لإبراز جماليات الصحراء في الرواية الجزائرية، وما هي الخصائص الجمالية التي تميزت بها الصحراء الجزائرية وكيف أهلتها هاته المميزات لممارسة التجريب على مستواها، ونبين كيف استلهم المبدع الجزائري هذا الفضاء لتجسيد حيزه الروائي ككل.

## ٢/ الفضاء الصحراوي والتجريب الروائي:

يقودنا الحديث عن الفضاء الصحراوي في الرواية الجزائرية ولاسيما الجديدة منها إلى تلك النقلة النوعية للمبدعين الجزائريين المتمثلة في استلهمهم لعوالم الصحراء في رواياتهم بوصفها المكان الأسر بحكم جاذبيته الطبيعية، ناهيك عن عاداته وتقاليده الملفة بغيرابته وتفرداها، فـ "مادامت الصحراء عالم الاقتصاد الكوني حيث كل شيء بنصيب، فإن معاني الصبر والحكمة والتريث، والاقتصاد في القول والفعل، تصبح سلوكات مرغوبا فيها لتحقيق منافع سياسية واجتماعية وذهنية ضرورية، كالتأمل والخلاص والرقى والبهاء والتأمل." <sup>١٥</sup>، وبهذه المميزات فهو فضاء مشجع على ممارسة الكتابة لا منفر، وفي ظل بحث المبدع الجزائري المستمر عن فرص جديدة للتجريب بزغت الصحراء كفضاء منح المبدع الجزائري آفاقا أكثر انفتاحا لممارسة تجربته الإبداعية بعشق منقطع النظر، لأنها الفضاء البكر الزاخم بالتنوع والغنى الثقافي الحافل بترات محلي يغني المتخيل ويعطيه بعدا فنيا متفردا في خارطة الرواية الجزائرية.

تشكل الصحراء الحافز الأساسي للعملية السردية بفضل خصائصها الطبيعية المثيرة، وما تبثه في النفس الإنسانية من مشاعر الإعجاب والانبهار، فهي مخزن من مخازن التصوير، ومعين لا ينضب من المعاني المجردة، فهي بخصائصها المتعددة

والمتفردة، مثل جماليات التدفق الضوئي الرهيب، واللاتساع الهائل لمدى الرؤية، والفراغ الموحش... تغري المبدع لممارسة التجريب الروائي، وتلهب خياله للابتكار، وتحفز تفكيره على البحث لتفسير مظاهرها الغامضة. ولعل الروائي الجزائري قد وجد ضالته في هذا الفضاء المغربي المتناقض الذي يمنحه فرصا لممارسة التجريب.

تحضر الصحراء بقوة في العديد من الأعمال الروائية، ولاسيما التي تنزع للتجريب منها. فقد برر حسن مودن ذلك " أن الأدب السردي العربي قد عرف مع روايات الصحراء. ظهور نصوص سردية تجعل شخصها وحكاياها وتأملاتها تستوطن الصحراء. تقود الصحراء ضد قوى الموت، وتلاحق أسئلة المطلق والخير والنشر في صراعاته البديهة"<sup>١٦</sup>. فانتقاء الفضاء الصحراوي لممارسة التجريب إنقاء موجه له مبرراته الاستراتيجية التي تقود المبدع لوضع بصمته الفنية الخاصة في بناء سردي جديد يتوخى الجمالية، ويكرسها في أعماله. وقد ساهمت طبيعة الصحراء ومكانتها في ذلك التواجد القوي في الخطاب السردى الجزائري.

إن سر توجه الروائي الجزائري صوب فضاء الصحراء تبرره القيمة المعنوية للصحراء في حد ذاتها. إذ "تحضر الصحراء بقوة في الوعي الجمعي الجزائري لكونها جزءا لا يتجزأ من الهوية الجزائرية ترانيبا، جغرافيا، مناخيا، سياسيا، اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، حضاريا"<sup>١٧</sup>، فهي مكان له حضوره وله سطوته في الذاكرة الجمعية يرتبط بالموروث الثقافي، ومكانته الاقتصادية مهمة في الاقتصاد الوطني، لهذا كانت الصحراء مطمعا للاستعمار الذي لم يسلمها بسهولة، فهي الأرض التي واجهت حملات التنصير، وكانت محطة للتجارب النووية العسكرية، فهي سجل من سجلات التاريخ الوطني، ورمز من رموز هويته.

إن تكريس مفهوم التجريب في الرواية الصحراوية يعتمد على المبدع بالدرجة الأولى، حيث يسعى هذا الأخير إلى تبطين نصه بجماليات متنوعة تثير فضول القارئ وتحفزه للولوج إلى عوالم النص، فالروائي لا يكتفي بتعميق أسرار الصحراء، بل يجعلها صورة يفجر من أبعادها أشجانها، ويفجر من سماتها معاناتها، ويجعلها مخزنا للتصوير، والتمثيل والتوسيع في المشاعر الإنسانية بشكل عام، ففي الصحراء متسع لصور لا حدود لها، وفي الصحراء متسع لخيالات يمكن الاتجاه بها حيثما تتم الحاجة إلى كشف أو تبين أو تعميق أو حتى يخلق في آفاق التعبير الجمالي، ولموتيفات (الأنماط الفنية) الصحراء إحياءات تمنح الروائي قدرة على الكشف السريع، والعصف الانفعالي. لهذا فإن مقياس مدى نجاعة التجريب يتناسب طردياً مع الجماليات الفاعلة في النصوص السردية، لهذا يجب البحث في طرق تشكل الجماليات داخل النص، لأن التجريب يعتمد تقنيات خاصة هدفها الأساس خلق مواطن جمالية داخل النصوص المبدعة.

تكن جمالية نص الرواية الصحراوية الجزائرية في غموضه وإبهامه وسعة فضاءاته، وذلك يتأتى بالربط بين الأمكنة والشخوص، وتأويل الأثر الناتج عن تلك العلاقة، فقد يرتقي المبدع بتلك العلاقة بفلسفته، أو بإضفاء سمة الصوفية على تلك العلاقة، فأهمية صورة المكان هي التي تحدد البعد الذاتي النفسي، وقد يذهب الروائي بعيداً بخياله إذا استخدم التهويم الأسطوري، فتضمحل العلاقات بين الأمكنة والشخوص لدرجة الانحلال والتماهي، فتطغى سمة الغموض المنشودة، وعليه فبقدر ما أبدع الكاتب في نصه متمثلاً ومسخراً كل مهاراته وأدواته الفنية، بقدر ما أبدع الناقد في تسخير أدوات التحليلية الموازية لفك طلاسمه، فالعلاقة متعدية بين الطرفين، فسمو النص وتعالیه يستوجب قارئاً مميزاً بدرجة ناقد. لهذا يجب البحث في السبل الكفيلة التي ينتهجها الكاتب عن طريق التجديد والتجريب لإنتاج نص جميل يفتح شهية القارئ صوب النص.

و يسعى المبدع للتجديد من خلال بلورة مفهوم التجريب الذي يتنافى مع القديم ويهدمه لميلاد نص جديد وفي هذا الصدد يرى عبد الملك مرتاض: "ولا يعني هذا إلا أن النص الأدبي لا قواعد له، وكما أن الإبداع الحقيقي إنما هو في رأينا للقواعد التقنية المتعارف عليها فإن النقد الحقيقي إنما هو بعض ذلك، ولكن تخريب المبدع لا يكون مؤذياً، وإنما هو تخريب يشبه عمل المهندس المعماري الذي يأمر بتهديم بناء قديم يشيد على أنقاضه تحفة رائعة"<sup>١٨</sup>، فالتجريب يمنح المبدع الحرية في استخدام الطرق والأساليب الكفيلة للتجديد إلا أننا لا نستطيع إغفال الدور المهم لانتقاء الفضاء المناسب الذي تحيا فيه شخوص الحكاية، فقد كانت الصحراء بوصفها الفراغ الموحش في الواقع هي الفضاء الأنسب للتجريب، فالمبدع بخياله الخصب يعمرها، بل يذهب بعيداً باستشراف المستقبل ليحول بواديهما لحواضر، وهذا مالا مسناه في رواية اعترافات أسكرام<sup>١٩</sup> التي تحولت فيها تمرسات إلى تام سيتي. فمفهوم التجريب يعني البناء بعد الهدم حيث تكون عملية الهدم مدروسة وليست عشوائية أي بناء واقع متخيل جديد باللغة على أنقاض واقع متخيل قديم سابق، فتكون عملية هدم النص السابق مولدة لنص جديد يتجاوز النص الكلاسيكي من الناحية الجمالية.

لقد وجد المبدع ضالته في الصحراء فهي الفضاء الأرحب للتعبير لأنها تساهم في تشكيل عمق ثقافي وتعددي للإنسان الجزائري، فهي تلك الهوية الثقافية المنسية والمهمشة، وهي الذاكرة الموغلة في القدم، هي جزء لا يتجزأ من التاريخ الوطني، لم يلتفت لها المبدع بالرؤية التي يستحقها فضاءها الغني والملمم، فتناسها، أو بالأحرى غفل عنها، ليدرك سطوتها وروعيتها في بحثه عن التجديد، فشكلت الملاذ لكل مبدع سعي لممارسة تجريبه، لهذا برزت عدة روايات جزائرية حديثة تبنى من خلالها كل مبدع إستراتيجيته الخاصة لرسم تجريبه ليحصل في الأخير على عمل روائي مميز، فقد يعزف

على وتر التراث أو الأسطورة أو التاريخ حسب ما تقتضيه ظروف الكتابة الراهنة والمهارات الذاتية لكل فنان، ومهما اختلفت الطرق وتعددت فإن هاجس النتيجة واحد وهو الظفر على عمل فني مميز، وقد يعزف المبدعون على نفس الأوتار، لكن إبداعاتهم تتمايز فيما بينها، لأن الجمالية تكمن في كيفية التعامل مع تلك الروافد.

إن تكريس مفهوم التجريب في السرد الروائي كسبيل للتجديد، يجمع ليفرق ويهدم ليبنى، فكل المبدعون يجتمعون حول هذا المفهوم ليتفرقوا بعد ذلك في طرق تناوله واستخدامه، وبهذا تتمايز الأعمال الإبداعية حسب مهارة الأداء، ثم أنهم في التفاهم حول المفهوم يتفقون على ضرورة هدم القديم لكنهم يختلفون في كيفية بناء الجديد. فالتجريب هو البحث عن صيغ جديدة تتحقق من خلالها متعة الكتابة الخلاقة وذلك بهدم القديم وإنشاء الجديد عن طريق الإقحام السلس لمعطيات الحضارة والثقافة من تراث وتاريخ، ولعل هذا ما استثمره المبدع الجزائري بتوظيفه للصحراء كفضاء يوطر تجربته الروائية، فالصحراء تغدو فوق دلالتها المكانية والأسطورية، إطارا تاريخيا زمنيا لاكتشاف الذات بالمعنى الخاص والعام، الذي يجاوز البقعة المكانية بقاطنيتها وتراثها فيها إلى قيم دلالية وجمالية أسمى وأوسع من ذلك بكثير تمس الوجود برمته. فأدوات المبدع التجريبيه تنهل من المرجعيات، وآليات استثمارها بالتحويل والتحوير، والإقحام والإدماج، إذ يعكف المبدع على تجريب كل الطرق إلى درجة المشاكسة فيدمج هذا بذاك (الخيال مع الواقع)، فهو حينما يستلهم التراث يحاكي ويعارض في الآن ذاته. وفي جميع الأحوال فإن المبدع يجرب لبيدع نص جميل، حيث تتجدد وتتووع الجمالية في كل نص سردي وليد.

### ملامح التجريب الروائي في رواية الصحراء:

وظّف كُتّاب الرواية الجزائرية الفضاء الصحراوي بوصفه الفضاء الجديد الذي يمنح الكاتب طاقات متجددة لتكريس مبدأ التجريب الروائي، فهذا الفضاء الذي تناساه الروائيين لفترة من الزمن حان الوقت لاستثماره من جديد بروؤية مختلفة عن ما عهدناه في هذا الصدد يقول الباحث - عبد القادر بن سالم: "أما في الجزائر، وعلى الرغم من أن ثورة التحرير ما تزال ملهمة كتاب الرواية، فإننا نلفي عند بعض الكتاب ذلك الهاجس المستمر الذي يسعى إلى المغامرة حيث تكشف المدونة الروائية الجزائرية ذات التعبير العربي عن انخراط عدد مهم من نصوصها في موكب التجريب، مع تفاوت درجات وعي كتابها بشروطه وآلياته لما يستثمرونه من أشكال وتقنيات بغية التعبير عن الإشكاليات المستحدثة الناجمة عن تحولات المتأزمة التي ما فتئت تشهدها مختلف أبنية المجتمع الجزائري من الاستقلال إلى الآن، وما نجم عنها من أحداث جعلت البحث عن أشكال تعبير جديدة يكون ضرورة نظر الجيل الجديد من كتاب الرواية الجزائرية".<sup>١٠</sup> ، فولوج المبدعين الجزائريين فلك التجريب أمر مؤكّد اقتضته ضرورة استحداث أشكال

تعبيرية قادرة على استيعاب تحولات الواقع الجزائري وتغييراته، ونتج عن ممارسة التجريب ميلاد أعمال إبداعية تتنوع حسب روافد التجريب المستخدمة في كل إبداع من جهة، وحسب المهارات الفردية لكل مبدع في استخدام التجريب ملهماً للتغيير والتجديد من جهة أخرى.

جسدت عدة أعمال جزائرية مفهوم التجريب في النصوص السردية مستغلة ما تمنحه الصحراء كفضاء مؤطر للخطاب السردية، فقد شكلت هاته الأخيرة مادة دسمة للنقد الجزائري والعربي، ويتأكد ذلك بشكل لافت للانتباه في العديد من الروايات الجزائرية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه الروائي لحبيب السائح في رواياته الأخيرة مثل "تلك المحبة".

وتسعى الرواية التجريبية إلى طرح شكل تعبيرية سردي جديد يتلاءم ومعطيات الواقع الجديد الذي لا يستقر على حال معينة، لهذا فهي مضطرة إلى الظهور كل مرة في لبوس جديد يطرح علينا أسئلة جوهرية مغايرة، فالرواية لها موقفها الذي "يتمد بجذوره إلى آحاد بعيدة، مارس الإنسان فيها الكتابة بشكل بسيط جداً، وما لبث أن تصاعد اهتمامه بها إلى أن بلغ موضعاً من التعقيد والتجريد مسائراً في ذلك تطور مراحل نشوء الكتابة وارتقائها"<sup>٢١</sup>، تعبر الرواية عن مواقف الإنسان من الحياة، فكل موقف يناسبه ضرب معين من الكتابة، فالموقف البسيط تناسبه الكتابة البسيطة والموقف المعقد تناسبه الكتابة المعقدة وكلما زادت حدة التعقيد في الكتابة كلما ازدادت جمالية النص. والفضاء الصحراوي يمنح المبدع تلك الأفق التجريبية بحكم طبيعته المتحولة، وتناقضاته الرهيبة، فضلا عن ثراءه التاريخي والأنثروبولوجي، فهو قبلة كل متأمل يطمح للتمعن في ملكوت الكون، فهو الملاذ والمفر، وهو عالم عجيب يعطيك سكينه وهدوءاً، ووحشة وألفة، فهو بذلك يوفر ظروفًا خاصة للمبدع لممارسة كتابة تعتقه من سلطة النموذج القديم، وتفتح له آفاقاً جديدة لكتابة واعدة تسمو للتجديد الروائي.

تستدعي ممارسة طقوس الكتابة في الوضع الراهن مبدع مغامر ومعارض في الوقت ذاته، فهو "ينقض المسلمات الجامدة والتقاليد الثابتة والأعراف الخائفة، وصياغة السؤال الذي يولد السؤال، وممارسة حرية الإبداع في أقصى حالاتها"<sup>٢٢</sup>. يتضح من هذا الملفوظ الدور المهم الذي يلعبه المبدع في التأصيل والتأسيس للرواية التجريبية من خلال سعيه الحثيث في تجديد الخطاب السردية الروائي، وإن كان فعل التجريب قد مارسه كُتاب الرواية الجزائرية في مراحل سابقة ونشأت عنه اتجاهات للرواية الجزائرية، فإن فعل التجريب المعاصر يتخذ شكلاً آخر حيث تنفتح الرواية على الأجناس الأخرى فتصير الرواية أملاً لكل الأجناس الأدبية، فنجد فيها الشعر والأسطورة والأمثال الشعبية، والخرافة، واللغات الأجنبية والفصحى والدارجة، فالكاتب له الحرية

المطلقة في إقحام ما يشاء إقحاماً سلساً ينهض بجمالية النص ولا يتنافى معها مع التزامه بقضايا المجتمع. وبذلك فهو يوازن بين ضرورة التأسيس وضرورة الجمالية الفنية. لعل الرواية في الوقت الراهن تحاول التعبير عن مواقف معقدة جداً، فالحروب الأهلية، والاستبداد، والعنف، والإرهاب... كل هذه إشارات دالة على المناخ الاجتماعي القلق والمتوتر الذي يعيشه الإنسان والذي سينعكس لا محالة على الإبداع الروائي. إذا كان هذا هو الجو الاجتماعي الذي تنشط فيه التجربة الروائية، فإن الخطاب السردى التقليدي لن يفي بالغرض بحكم قواعده المتمزجة، لهذا وجب البحث عن ظروف أخرى تُمارس فيها الكتابة بكل حرية. بمعنى آخر يجب البحث عن البديل الذي يعتق المبدع ويحرره من سلطة النموذج القديم، وذلك ما لمسناه في الرواية الجزائرية التي اتخذت الصحراء فضاء مؤطرا لتجربتها الروائية. إذ عملت على استغلال التراث الصحراوي من خلال إعادة بعث المواد الحكائية الموروثة ثم تحويلها في البنية السردية بطريقة فنية تتم عن ذكاء ومهارة المبدع وقدرته على توليد الجمالية في المتن الروائي. إذ أن عملية الابتكار الفني تستوجب آليات معينة تشغل داخل المتن الروائي، وذلك من خلال توظيف التراث بكل أشكاله الأدبية والتاريخية والدينية، إذ تعمل هذه الخامات اللغوية على تطعيم الرواية بطاقات لغوية متجددة تنصهر داخل المتن الروائي مع اللغة السردية وتتمازج لتشكل في الأخير خطاباً سردياً تتعدد وتنوع جمالياته فجدد فيه اللغة الانزياحية وتنوع الصيغ في الخطاب الروائي وتعدد وتنوع الأصوات السردية .

ارتسمت ملامح التجريب على عدة روايات جزائرية انحازت للفضاء الصحراوي، فشكلت كل واحدة منها وجهاً جمالياً له سماته الخاصة، ففي كل مرة تطل علينا الرواية الجزائرية بلوحاتها الجميلة التي تتم عن مدى استيعاب المبدع الجزائري لهذه التقنية، فيعد قرابة العقدين سيعاود رشيد بوجدره هذا التجريب بامتياز في روايته (تميمون)<sup>٢٣</sup>، بانتهاجه كتابة رواية السيرة الذاتية التي سبقته إليها الروائية مليكة مقدم<sup>٢٤</sup> في معظم رواياتها.

وتتوالى في الرواية الجزائرية الجديدة محاولات مماثلة شتى تتبنى الفضاء الصحراوي عند المبدع نفسه وعند غيره من المبدعين ليظل علينا هذا الشكل السردى بحل جديد متفاوتة الأناقة حيكته بمهارة فائقة من مبدعيها. فالكتابة الإبداعية عرفت نقلة نوعية لأنها صارت تبحث عن حساسية جديدة تلمس عمق العملية الإبداعية، فهي بحاجة إلى تشريح الظاهرة الأدبية في عمومها وإجراء ما يشبه العمليات التجريبية التي تغير، ولا ترمم، فيزغ في الأفق ما يصطاح عليه بالحدث، وما بعدها، فالمرحلة تطلبت تغييراً عميقاً يتجلى في استحداث رؤية جديدة تتماشى مع التطور الحاصل في العالم، فيزغ تيار جديد يعنى بأدبية الأدب، ويسعى جاهداً للأخذ بالأسباب التي تمكن



الرواية الظفر بجماليات جديدة لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال ممارسة التجريب للحصول على روايات فنية بامتياز.

تعد الدينامية التحولية التي سبقت ظهور الرواية الجزائرية الجديدة مرحلة مهمة لبلورة وعي جديد بالبحث المستمر عن قواعد، وأنظمة للأبنية، والأشكال، والأنساق التخيلية، والطرائق الكتابية، والموضوعات المستحدثة لابتكار بنية نصية جديدة تتميز عن بنية النص الكلاسيكي، فمرحلة البحث عن آليات جديدة هي مرحلة تأسيسية مهمة لـ "حساسية جديدة" بنت أواصرها على "مبدأ التجريب" الذي يستدعي استحداث آليات وصيغ مغايرة للأنماط السائدة، فهذا التجديد يحتاج مبدعا جريئا يتمرد عن القديم ويتجاوز لبيبتكر عوالم متخيلة جديدة لم تتناولها الروايات السابقة، فالروائي يعيد صياغة تجاربه أو تجارب غيره، فيبني عوالم جديدة ويعمرها بالشخوص، وكأنني به يبث الروح حتى تنضب رواياته بالحياة، وبهذا يبتكر عوالم متخيلة لم تتناولها الروايات السابقة، فالتفرد الإبداعي يكمن في آليات كل مبدع في تحويل الواقع لخيال، والخيال لواقع، فالأمر الذي يجتمع فيه كل المبدعين هو سعة الاطلاع، بينما البصمة الإبداعية تتشكل في آليات الابتكار.

تعددت العوالم المتخيلة وتلونت في الرواية الجزائرية المعاصرة التي اتخذت الفضاء الصحراوي وعاء يلف مكوناتها السردية، فقد أبانت رواية الصحراء عن قدرة الروائي على تمثيل هذا الفضاء بروؤية مستحدثة بإعادة توليف الخطاب الروائي على نحو مغاير يستمد الآليات والتقنيات الجديدة في سبيل القضاء على النمطية السائدة في الأشكال والمضامين التقليدية التي لم تصمد أمام التحولات التي مست المجتمع، والإنسان الجزائري فطوعت من أشكالها ومضامينها، بما يتناسب وهذه المستجدات والمتغيرات وبذلك، فلا يمكننا إنكار هذا الالتفات الواضح للفضاء الصحراوي في ظل المتغيرات الحاصلة في النظرة الجديدة للفن عموما، والرواية على وجه الخصوص، ويمكننا حصر جماليات الفضاء الصحراوي في ثلاثة عوالم وظفها المبدع الجزائري لرسم أبداع الصور للفضاء الصحراوي في الرواية الجزائرية.

### ٣/ الخصائص الفنية للفضاء الصحراوي في الرواية الجزائرية:

تعد الخاصية التي التف حولها أغلب الروائيين الجزائريين هي توظيف الصحراء بوصفها مكان ذو خصوصية لا محدودة فقد شكلت اتساعا و فراغا لا محدودين، إضافة إلى ذلك فهي المكان الذي يطبق فيه الصمت المطلق مما يبعث بالشعور بالخوف في المقيمين فيها، من هذا تأسست جمالية المكان الصحراوي في الرواية الجزائرية وفق نظام التناقض والتضاد، فهذا المبدأ تجلى بوضوح في رواية "تلك المحبة" للمبدع " لحبيب السائح"، إذ أظهر الروائي ذلك دون أن يغوص في سرد تفاصيل المكان، وكأنني به يقدم خلاصة تجربة حياة في الصحراء: ((.... الحياة كلها صحراء، كما يقول الحكماء.

والمرأة هي الجمل الذي به يقطعها الرجل.)) فأبدت استغرابها: (( لم أكن أعلم هذا فهمس مقربا شفقيه من أذنها : (( عندما نختار نصبح ملزمين بأن نأخذ كل شيء أو نترك كل شيء، هكذا هي الصحراء ، صارمة في الخيارات الثنائية: أهل ووحشة. برد وحر. عصف وصمت. الله والتوه، لا شيء بينهما، الحقيقة والضلالة. لذا كانت الصحراء من أفسى الطباع في الانتقاء، الصحراء تختبرك دون إشعار مسبق. فإن فشلت هزمتك. ولا أنيس لك فيها غير امرأة))<sup>٢٥</sup>

فالصحراء حسب هذا القول لغز ورمز بحكم فضائها الذي يلهب الخيال، ويدعو الإنسان للتأمل والتدبر في سرها وغموضها، وخياراتها الثنائية ، فهي مكان يقربك من الخالق، ويقربك من حقيقة هذا الكون، لهذا استند السارد على أقوال الحكماء الذين يرجحون العقل، وينطقون بالحكم بعد تدبر وإمعان.

تمكن الروائي من إبراز جماليات المكان الصحراوي دون الغوص في تفاصيل المكان، إذ أوحى له المكان بدلالات لا يصل إليها إلا الحكماء، بل إنه استفاد من الحكماء لمعرفة سر لغز الصحراء، فكان تخيله هنا مبني على جدلية الخلق النابع من المكان المتلون وبه، والمتأثر بسماته، فيقدر ما هو متوحش فهو ذي ألفة، ويقدر ما هو بارد فهو حار، ويقدر ما هو عاصف فهو صامت، ففيه نتوه لنصل إلى الحقيقة وهي الله هو خالق الكون، فكل شيء بقدر. ولعل الأجل أن يصيغ الروائي كل هذه الدلالات في حوار بدي فيه أحد المحاورين (جولييت) متشغف لمعرفة حقيقة الصحراء التي خبلت العقول والقلوب.

هذا، تعد الثنائيات من أبرز الوسائل لإظهار جماليات الأمكنة في الرواية، فهي تجمع المتضادات، وهذا يكشفها ويجدها، أو يدخل الغموض والجلال والرهبية، وفي ذات الوقت يغمضها ويعومها، إنها الفراغ المراوغ الذي لا يمكن الإحاطة به وتثبيتته وتحديده، بل إن الصحراء مكان ليس كالأمكنة ولذا فإن الفعاليات التي تقع فيه ليست كالفعاليات التي تقع في الأمكنة الأخرى، إن المكان يمنح الأحداث بعدا، ويخصصها ويميزها ويحتاط لها ويتداخل مع سماتها(( تأمل عذرا أن يتحرر بصره بعيد، أين ينسكب هناك في مجاهل الضوء، في غياهب الصحراء، صحرائها التي تحن إليها، الصحراء المتمردة رمالها، صحراؤها التي تترمي لتبسط سحرها على ربع القارة الإفريقية حيث كان أجددها الطوارق منذ آلاف السنين جزءا منها، من جنونها وصوابها، من هدأتها ويقظتها، من ثبات صخورها التي تنتصب منذ أزل ، غريبة الأشكال، عملاقة شاهقة، حتى لا تكاد تبدو أبدية، كانوا جزءا من سر تحرك الرمال وهشاشة كثبانها، يعرفونها كما يعرفون كفوف أيديهم، ويقرنونها كما يقرؤون حروف النقيان، تتمرغ فوق حبيبات الرمل وتكلمها))<sup>٢٦</sup>

وتعد الصحراء رمزا للموت والضياع والنهاية المحتومة، فهي حلقة لا يعرف لها أول من آخر، هي هذه الفضاءات التي هي الصحراء، فالصورة التي رسمها الروائي "عبد القادر بن سالم" في روايته "الخبيل تموت واقفة... أو ما تبقى من ذاكرة قير" للواد وهو جزء من الفضاء الصحراوي لمنطقة قير يخضع للخيارات الثنائية الصارمة للصحراء<sup>(١)</sup> وباتت قير على خبير الفاجعة، ومن ثم، ظل الواد رمزا للحياة وللموت في آن، يحبه الناس ويغضونه، عطوف كأب مرهف الإحساس، حين يهبهم الخصب والنماء، ويحول أرضهم إلى جنة خضراء تتعاقق فيه سنبل القمح والشعير على مد البصر، وجبار حين يهيج، فيحول السهل إلى رماد<sup>(٢)</sup>.

تتعدد وتتلون صور الصحراء في الرواية الجزائرية، فما هي في مشهد مغربي تتلبس الجمال بخيوط ذهبية لامعة تصنع أجمل حالاتها الشمس حين تشرق أو تغرب، فيجتمع الناس من كل حذب وصوب لرؤية ذلك المنظر الاستثنائي الذي اختصت به أسكرام دون سواها، هكذا يصور الروائي عز الدين ميهوبي في روايته اعترافات أسكرام تهافت السياح على منطقة أسكرام قائلا: "أسكرام يفد إليها السياح من كل أنحاء العالم. يقولون إنهم يقصدونها لأجل أن يعيشوا أفضل لحظة لشرق الشمس وغروبها. يأتون بالآلاف من أجل تلك اللحظة الفارقة بين موعدين زمنيين. يأتون من أوروبا وأمريكا وروسيا واليابان وأستراليا، ويأتون أيضا من البلاد العربية"<sup>(٣)</sup>، هكذا تبرز صورة الصحراء في مشهد عذري بريئ ينضح بالجمال والإغراء في لحظات، كما أنه قد يتلاشى في لحظات، فهذه الصور الجمالية الزئبقية لأمكنة الصحراء تحفز الفكر، وتلهب الخيال، فتفتقر ينابيع الإبداع بإلهام صحراوي منقطع النظير.

لقد حضر العالم الصحراوي حضورا مميزا في الرواية الجزائرية، فقد نالت الصحراء وعوالمها وبيئاتها حيزا مهما عند الروائيين الذين اتخذوها فضاء لتأطير تجربتهم الإبداعية، فقد تجلت الصحراء كمكون جمالي في الرواية الجزائرية المعاصرة، فقد غدت الصحراء مشروعا جديداً للرواية التجريبية يطرح نفسه بديلا عن السائد المكرس ثائراً بوعي جمالي انطلقا من التجريب الذي يؤسس مفهومه على الإبداع، وتجاوز الممكن المتاح والسائد الجاهز، فكل ما تجاوزه الإنسان كان في زمنه يعد مغامرة وتجريبا، على هذا الأساس تمكن المبدع الجزائري من خلال التجريب الروائي التأصيل لإبداعاته بإحياء التراث الهائل للصحراء الجزائرية، والتجديد من خلال تحميل هذا الفضاء طاقات تعبيرية مستحدثة بواسطة التخيل، والإيهام والغموض والترميز.

١- ابتكار عوالم متخيلة جديدة لا تعرفها الحياة العادية، ولم تتداولها السرديات السابقة خلقت منطقها الداخلي و بلورت جمالياتها الخاصة، فقد كشفت بل فجرت الرواية

مكونات ظلت غائبة عن المتلقي، حيث تمكن المبدع الجزائري من رصد حيوات سابقة بطريقة بدیعة عن طریق تقصي الحقائق التاريخية، والقصص التراثية.

٢ - توظيف تقنيات فنية محدثة لم يسبق استخدامها في هذا النوع الأدبي انطلاقاً من استفادة الرواية بالقوالب الفنية لأنواع فنية أخرى، فلم تسن أي فن، موسيقى، رسم، مسرح، دراما.... وغيرها .

٣ - اكتشاف مستويات لغوية التعبير تتجاوز نطاق المؤلف في الإبداع، ويتم ذلك عبر شبكة من التعالقات النصية التي تتراسل مع توظيف لغة التراث السردی أو الشعري أو اللهجات، أو أنواع الخطاب الأخرى لتحقيق درجات مختلفة من شعرية السرد.

### خاتمة:

أصبح النزوع نحو توظيف الفضاء في الرواية العربية عامّة والرواية الجزائرية على وجه الخصوص تحولاً مسّ عمق الظاهرة الأدبية، بحكم أن " التجريب قرين الإبداع، لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة، فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المؤلف ويغامر في قلب المستقبل، الأمر الذي يتطلب الشجاعة والمغامرة، واستهداف المجهول دون التحقق من النجاح."<sup>٢٩</sup>، فالرغبة الجامحة في التجديد تستدعي إعلان القطيعة مع ملامح الكتابة ضمن قوالب جاهزة في أجواء التيار التقليدي لحلحلة الفن الروائي نحو تيار حدائثي ينبذ الثبات ويحبذ الحركية ليساير عالماً يتغير بسرعة فائقة، لهذا التحول في بنية الرواية وتقنياتها وأشكالها السردية بات أمراً ملحاً لا مفر منه.

## الهوامش:

- ١ ابن منظور، لسان العرب، ط١، ج٨، ص ١٨، مادة (بَقَعَ).
- ٢ المرجع نفسه، ج٥، ص ٣٤١-٢٤٢، مادة (حَوَّرَ).
- ٣ ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص ٣١٠، مادة (خَلَا).
- ٤ المرجع نفسه، ج٨، ص ٤٤٤-٤٤٥، مادة (فَرَعَّ).
- ٥ ينظر: المرجع نفسه، ج١١، ص ١١٩-١٢٠ مادة (جلل) وإبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج١، ص١٣١، مادة (جَلَّ).
- ٦ ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص ٢٩١-٢٩٢، مادة (الملا) وينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص ٣٩٤، مادة (الملا).
- ٧ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص ١٦٣-١٦٥، مادة (خَلَّلَ)، و ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٣، ص ٣٧٠-٣٧١، مادة (حَلَّ).
- ٨ يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص ٣٩٦-٣٩٩، مادة (وضع) وابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص ١١٧، مادة (وَضَعَ).
- ٩ ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص ٤٠٣ - ٤٠٤، مادة (وَقَعَ).
- ١٠ المرجع نفسه، ج١٥، ص ١٥٧ - ١٥٨، مادة (فضا).
- ١١ المرجع نفسه، ج١٥، ص ١٥٧ - ١٥٨.
- ١٢ ينظر: حمدان بن ناصر الدخيل، أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني، العدد ٢٣، ص ٠٣.
- ١٣ الأعرشى الكبير، ميمون بن قيس، الديوان، ص ١٧.
- (\* البرد: الثوب المخطط، ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص ٢٨٦، مادة (البرد).
- (\* لسدير: أرض باليمن تنسب إلى البرود. المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦، مادة (الصدر).
- (\* مشاربها: جمع مشرب، وهو موضع الماء الذي يشرب منه، المرجع نفسه، ج١، ص ٨٩، مادة (الشرب).
- (\* دائرات: قدمت كتدائر الثوب فهن مطموسات، ينظر: المرجع نفسه، ج٢، ص ٢٨، مادة (الدثر).
- (\* أجن: مفردا أجن وهو الماء المتغير الطعم واللون، ينظر: المرجع نفسه، ج٤، ص ١٩٦، مادة (الأجن).

- ١٤ صلاح صالح، دراسة المكان الروائي في قساد الأمكنة، فصول، العدد ٣، ٠٣، مجلد ١٢، ١٩٩٣م، ص ٢٥٥.
- ١٥ عثمان الميلودي، العوالم التخيلية في روايات الكوني، ص ١٣٧
- ١٦ سليمان قوراري، تجليات عالم الصحراء في النص الجزائري، مملكة الزيوان، أنموذجاً. الأنترننت.
- ١٧ احسن المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النصي، ص ١٢٧.
- ١٨ عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، ص ٥٥.
- ١٩ عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، ٢٠٠٨م.
- ٢٠ عبد القادر بن سالم، بنية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص ٨٠.
- ٢١ محمد المعتصم، الخطاب الروائي والقضايا الكبرى (النزعة الإنسانية في أعمال سحر خليفة)، ص ٦٦.
- ٢٢ هناء عبد الفتاح، أصول التجريب في المسرح المعاصر، النظرية والتطبيق، مجلة فصول، المجلد ١٤، العدد، ص ٣٩.
- ٢٣ رشيد بوجدر، رواية تميمون، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، ١٩٩٤، الجزائر.
- ٢٤ مليكة مقدم كاتبة جزائرية مقمة بفرنس، تكتب باللغة الفرنسية من مواليد ٥ أكتوبر ١٩٤٥م. من مؤلفاتها الممنوعة، أدين لكل شيء بالنسيان.
- ٢٥ الحبيب السائح رواية تلك المحبة، ص ١٦٥.
- ٢٦ ربيعة جلطي، رواية نادي الصنوبر، ص ١١٧.
- ٢٧ عبد القادر بن سالم، الخيل تموت واقفة، ص ١٣.
- ٢٨ عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، ص ١٠٤.
- ٢٩ صلاح فضل، لذة التجريب الروائي، ص ٠٣.

#### المصادر و المراجع:

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
- ابن منظور، لسان العرب، ط ١، دار صادر، بيروت.
- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر.
- الأعرشي الكبير، ميمون بن قيس، الديوان، تحقيق محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النموذجية، القاهرة.

- حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النصي، ط١، دار الأمان، الرباط، المغرب، ٢٠٠٩م.
- حمدان بن ناصر الدخيل، أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني، مجلة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ديسمبر ٢٠٠١م، العدد ٢٣.
- ربيعة جلطي، رواية نادي الصنوبر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٢م.
- رشيد بوجدر، رواية تميمون، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ١٩٩٤م.
- سليمان قوراري، تجليات عالم الصحراء في النص الجزائري، مملكة الزيون، أنموذجاً. موقع الأنترنت.
- عثمان الميلودي، العوالم التخيلية في روايات الكوني، ط١، الناية للنشر والتوزيع - محاكاة للنشر والتوزيع - الشركة الجزائرية السورية لنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠١٣م.
- عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- عزالدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر.
- عبد القادر بن سالم، بنية في النص الروائي المغربي الجديد، ط١، منشورات ضفاق والاختلاف المجلد ١، ٢٠١٣م.
- عبد القادر بن سالم، الخيل تموت واقفة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٤م.
- صلاح صالح، دراسة المكان الروائي في قساد الأمكنة، فصول، مجلد ١٢، عدد ٠٣، ١٩٩٣م.
- صلاح فضل، لذة التجريب الروائي، ط١، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت.
- لحبيب السائح رواية تلك المحبة، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠٢م.
- ٢٩ محمد المعتصم، الخطاب الروائي والقضايا الكبرى (النزعة الإنسانية في أعمال سحر خليفة)، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩١م.
- هنا عبد الفتاح، أصول التجريب في المسرح المعاصر، النظرية والتطبيق، مجلة فصول، المجلد ١٤، العدد الأول، ربيع ١٩٩٥م.